إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة – العدد الثامن عشر – صيف ١٣٩٤ش / حزيران ٢٠١٥م
ص ١٢٠ ـ ٩٩

مظاهر المقاومة فى شعر ابن القيسرانى

سيد مهدى مسبوق*
سارا اسدى (الكاتبة المسؤولة)**

الملخص

يعتبر أدب المقاومة أدب الوعى والحثّ على تجاوز الأزمات الشعبية والحروب والقهر ويحاول لاستنهاض الهمم للجهاد والوعى بالذّات والهويّة ويتناول موضوعات البطولة فى مواجهة العدوان والظلم والاحتلال. تختلف آليات المقاومة فى العصور المختلفة عند الأدباء فمنهم من يتّخذ القصة أو الرواية أداة للدعوة إلى المقاومة ومنهم من يتّخذ الشعر وسيلة للحثّ على الدفاع. ولما كان الشعر أكثر انتشارا وتأثيرا فى إثارة الهمم نلاحظ أنّه قد شغل حيّزا واسعا فى موسوعة أدب المقاومة. كان للغزو الصليبى أثره الواسع فى الحياة الاجتماعيّة ومنه فى الشعر حيث بدأ نفر غير قليل من الشعراء يجرّدون لسانهم للذود عن حمى الإسلام وتحميس الحكام وجندهم لمواجهة العدوان الصليبى. من الشعراء الذين برزوا فى بدء هذا الغزو وحملوا سلاح الشعر ضد العدو الصليبى هو ابن القيسرانى (٤٧٨–٥٤٨ق) الذى عمل على بعث الحمية فى قلوب المسلمين وسلاطينهم خاصة نور الدين الزنكى لاستعادة بلاد المسلمين. ومن أهمّ مظاهر المقاومة فى شعره الدعوة إلى النضال والتحريض على مواصلة الجهاد وتمجيد الأبطال وتصوير ظلم المعتدين. تبدو هذه العناصر فى تضاعيف قصائده فى مختلف الأغراض الشعرية كالمدح والهجو ووصف المعارك. اعتمدنا فى هذه الدراسة على المنهج الوصفى – التحليلى وهدفنا إلى إبراز مظاهر المقاومة و بيان خصائصها لدى ابن القيسرانى و ذكر المعانى التى اعتمد عليها الشاعر لإذكاء روح الجهاد و المقاومة فى صفوف المسلمين و خلصنا إلى أن الشاعر استوحى من الدين والوطن باعتبارهما الباعثين الأساسين لرفع المعنويّات وإثارة النخوة الدينيّة والغيرة القوميّة لدى المسلمين واستدعى رموزا تراثية ليحمّس الجنود المسلمين ويحرّضهم على الدفاع عن حياض الدولة الإسلامية وحدودها.

الكلمات الدليلية: المقاومة، العهد الزنكى، الحروب الصليبية، ابن القيسرانى.

---

*. أستاذ مشارك فى اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلى سينا، همدان، إيران
smm.basu@yahoo.com
**. خريجة ماجستير فى اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلى سينا، همدان، إيران
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادى نظرى منظم
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٧/١١ش تاريخ القبول: ١٣٩٤/٣/٢٠ش

١. المقدّمة

لما ضعفت الدولة العباسيّة فى القرن الرابع الهجرى بدأت التجزئة و التفكّک فيها، فظهرت دول مستقلة أكبرها الدولة السلجوقيّة، ثم أخذت فى الضعف والتدهور نتيجة النزاع بين الأمراء السلاجقة علي العرش. و فى ذلک الوقت الذى كان العالم الإسلامى يعانى من التفكّک والانقسامات السياسية أغار الصليبيون على بلاد المسلمين حيث لم يجدوا أمامهم أيّة مقاومة تذكر و مردّ ذلک إلى ضعف المقاومة الإسلاميّة وانعدام قيادة موحّدة تلمّ شمل المسلمين وتوحّد صفوفهم، فأخذت مدن الشام تسقط واحدة تلو الأخرى حتّى اقتصر حكم المسلمين على مدن الشام الداخلية. فى أثناء ذلک ظهرت أتابكية الموصل التى أسّسها عمادالدين زنكى سنة ٥٢١ق (١١٢٧م) على أنقاض حكم السلاجقة فى سوريا؛ حيث دعوا إلى قيام جبهة إسلامية موحّدة، من أجل قتال الصليبيين ودحرهم من بلاد الشام. فانطلق كثير من الشعراء يصوّرون انتصارات المسلمين على الصليبيين ويشيدون بالأمراء و السلاطين للتحريض على مقاومة الغزاة؛ وذلک بسبب الويلات التى تعرضت لها الأمة الإسلامية فى هذه الفترة والجرائم الوحشية التى اقترفها الصليبيون فى بلاد المسلمين.

من الشعراء المناضلين فى هذا العهد هو ابن القيسرانى الذى تتمحور أشعاره على بعث الحميّة فى نفوس المجاهدين للجهاد واسترداد مقدّساتهم والتصدّى للعدو الصليبى. عاش ابن القيسرانى فى فترة هامّة من فترات الحروب الصليبية، وصوّر فى أشعاره الأحداث الصليبية خير تصوير ومدح عماد الدين ونور الدين حين انتصرا على الصليبيين وحرّض الأبطال على مواصلة الجهاد لتحقيق هدفهم السامى وهو تحرير البيت المقدس، و لما كان شعر ابن القيسرانى يمتاز بالمقاومة والدّعوة إلى الجهاد ندرس فى هذه المقالة ملامح المقاومة فى شعره ونحاول أن نجيب على الأسئلة التالية:

١. ما هو دور الشعر فى مواكبة الحروب الصليبية؟

٢. ما هو أهم مظاهر المقاومة فى شعر ابن القيسرانى؟

٣. ما هى العناصر والمعانى التى اعتمد عليها ابن القيسرانى لاستنهاض همم المسلمين؟

ومن الجدیر بالذکر أنا اعتمدنا فی استخراج أشعار الشاعر علی کتاب الروضتین فی أخبار الدولتین النوریة والصلاحیة للمؤرخ أبی شامة المقدسی (ت ٦٥٥ق) إذ قد أورد الکثیر من قصائد ابن القیسرانی فی کتابه وذکر المناسبات الحربیة لهذه القصائد.

۲. الدراسات السابقة

یمکن إجمال أبرز الدراسات المتعلّقة بموضوع الدراسة علی النحو التالی:

أولا: الدراسات التی تناولت حیاة ابن القیسرانی وشعره بصورة عامّة وهی کتاب الروضتین فی أخبار الدولتین النوریة والصلاحیة لأبی شامة المقدسی، والأدب فی بلاد الشام لعمر موسی باشا والحیاة الأدبیّة فی عصر الحروب الصلیبیة بمصر والشام لأحمد أحمد بدوی والأدب العربی من الانحدار إلی الازدهار لجودت الرکابی وشعر الجهاد فی الحروب الصلیبیة فی بلاد الشام لمحمّد علی الهرفی. إن هذه الکتب قد تحدثت عن حیاة ابن القیسرانی و أوردت شذرات من أشعاره فی مختلف أغراضه الشعریة ومنها أشعاره المقاومة دون أن یستعرض لمواطن الجمال فیها ویلوح إلی عناصر المقاومة التی اعتمدها الشاعر فی هذه القصائد.

ثانیا: الدراسات والبحوث التی تناولت شعره بصورة خاصة وانفردت به وهی: رسالة الدکتوراه المعنونة بـ محمّدبن نصر القیسرانی حیاته وشعره لفاروق أنیس جرّار؛ تناول فیها الباحث مراحل حیاة الشاعر وأغراضه الشعریة والصورة الفنّیة فی شعر ابن القیسرانی عناصر التشکیل والإبداع لحسام تحسین یاسین سلمان فی رسالته لنیل درجة الماجیستر بجامعة النجاح الوطنیة فی نابلس والتی تناول فیها صوره الفنیة ومواطن الإبداع فیها، وکتاب صدی الغزو الصلیبی فی شعر ابن القیسرانی لمحمود إبراهیم والکتاب تحدث عن الحروب الصلیبیة فی عصر الزنکیین وأثرها فی شعر الشعراء الزنکیین وخص قوله بشعر ابن القیسرانی. وهناک مقالة تحت عنوان «الجهاد فی شعر ابن القیسرانی» لکریم علی عبد علی نشرت فی مجلة کلیة التربیة الأساسیة بالجامعة المستنصریة سنة ۲۰۰۹م. وقد عمد هؤلاء الباحثون إلی ذکر أشعاره من دون أن یدرسوا العناصر التی اعتمدها الشاعر لاستنهاض همم المسلمین لمواصلة المقاومة

وحثهم على استرداد مقدّساتهم. أمّا هذه الدراسة فتميّزت بتركيزها على دراسة مظاهر المقاومة فى شعر ابن القيسرانى من خلال الأشعار التى نظمها الشاعر فى الحروب الصليبية التى تأجّجت نيرانها فى العهد الزنكى وتحدّثت عن الآليّات التى اعتمدها الشاعر لإثارة الغيرة الدينية واستنهاض النخوة القومية لحث المسلمين على المقاومة واستعادة المدن الساقطة.

٣. نظرة على حياة ابن القيسرانى

هو شرف الدين أبو عبدالله محمد بن نصر بن شاغر بن داغر المشهور بابن القيسرانى[١] ولد فى عكا بفلسطين سنة ٤٧٨ قـ ثمَّ انتقل إلى القيسارية، فنشأ فيها ونسب إليها ولم يطل بقاؤه فيها وغادر قيسارية بعد استيلاء الصليبيين عليها إلى دمشق وهو فى مقتبل العمر وهناك اتّصل بشاعر الشام الذائع الصيت ابن الخياط وتأدّب عليه ولم يمكث فيها لأنه على خلاف مع الأسرة الحاكمة التركيّة من آل طغتكين، وهجا تاج الملوك بورى بن طغتكين هجاء لاذعا فبعث بطلبه فلم يجد بدّاً من الهرب إلى حلب ليجد الأمان لدى الملوك الزنكيين الذين بسطوا حكمهم على القسم الأعظم من بلاد الشام. (انظر: موسى باشا، ١٩٧٢: ١٥٩-١٦٠) وفى حلب اتّصل بعماد الدين الزنكى زعيم المسلمين فى النزاع القائم بينهم وبين الصليبيين. (بيومى، ١٩٥٢: ٣٣) وابنه نور الدين وخلد فتوحاتهما وانتصاراتهما الباهرة على الصليبيين، واستطاع من خلال قصائده أن يصوّر سياسة نور الدين وخطّته فى توحيد القوى الإسلامية تحت لوائه، مشيدا ببطولاته ومحرّضا للجهاد ضد العدوّ الغازى، لكن سرعان ما اضطربت الأمور، إذ وقعت جفوة بينه وبين نور الدين لا يعرف سببه بالضبط فتوجّه الشاعر إلى ملوك دمشق من آل طغتكين، ومدح حاكمها مجيرالدين آبق، لكن عرضت له حمّى شديدة لم تمهله غير عشرة أيام حتى توفّى سنة ٥٤٨ق. (الهرفى، ١٩٧٩: ١٦٠)

كان ابن القيسرانى ذا ثقافة واسعة تظهر ثقافته ومعرفته بالمنطق وكلام الأوائل

١.يبدو أنه هاجر منها مبكّرا بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ٤٩٤ق وقد اختلف المؤرخون حول نسبه وأهل بيته. بعض إخوانه يرفعونه إلى الصحابى خالد بن الوليد البطل العظيم، بيد أن الجلّة من المؤرخين يعتقدون أنّ نسله انقطع منذ زمن بعيد.

وأخبار القدماء من خلال المنامة التی یصوّر فیها نفسه، ویحاور فیها أباتمام وهی تعرف بظلامة الخالدی.[۱] (یاسین سلمان، ۲۰۱۱: ۱۸) وکان المدح من أهمّ أغراضه الشعریة إذ إنّه عاش فی فترة هامة من فترات الحروب الصلیبیة، و شهد بعض المعارک التی وقعت بین المسلمین وأعدائهم؛ لذلک مدح بعض کبار رجال الدولة الذین شارکوا فی الجهاد، مشیدا ببطولاتهم لإثارة الحمیّة فی نفوس المجاهدین، و له فی الهجاء جولات مع ابن منیر الطرابلسی بحیث «کانا یشبهان جریرا والفرزدق للمناقضات والتهاجیات التی جرت بینهما.» (عماد الاصبهانی، لاتا: ۵۵۲/۱) وله أوصاف فی تضاعیف شعره تشمل «وصف المعارک الحربیّة، ووصف السمات النفسیّة للأبطال، ووصف دمشق.» (أحمد بدوی، ۲۰۰۳م: ۱٤٥) أما غزله فرقیق یتحدّث فیه عن الحسناوات من الفرنج. (المصدر نفسه: ۱٤٥)

٤. الحیاة السیاسیة والاجتماعیة فی العصر الزنکی

تنسب الدّولة الزنکیّة إلی مؤسسها عماد الدین أتابک[۲] زنکی بن آق سنقر، وکان قسیم الدولة آق سنقر من أصحاب ملکشاه وأترابه وممّن تربّی معه فی صغره، واستمرّ فی صحبته إلی حین کبره، فلمّا أفضت السلطنة إلی ملکشاه تبنّاه بعد أبیه، وجعله من أعیان أمرائه ولقّبه قسیم الدولة، ثم تولّی مدینة حلب ومنبج واللاذقیّة، فأقطعه الجمیع وظهرت کفایته وهیبته فی جمیع بلاده، ثم ملک بعد موت ملکشاه تکریت، والرحبة وحمص، ثم قتل سنة ٤٨٧ق دفاعا عن برکیاروق ابن ملکشاه تجاه تاج الدولة تتش أخی ملکشاه الذی تطلب السلطنة. (انظر: المقدسی، ۱۹۹۸م: ٦٦-٥٨) ولم یخلف قسیم الدولة غیر

---

۱. ظلامة الخالدی، منامة أدبیّة عرض فیها ابن القیسرانی لمحاورة بینه وبین أبی تمام؛ حیث یعرض ابن القیسرانی نفسه، حاملاً لواء الشعر فی زمانه، وأنّه فرید عصره وأوانه، یأتیه أبوتمام فی المنام لینصفه ممّن ظلمه، ونسب شعره إلیه، وتکون المحاورة بأسلوبی الشعر والنثر ویظهر ابنالقیسرانی وهو یحاور نفسه علی لسان أبی تمام، إذ إنه معجب بشعر أبی تمام مقلّد له. (یاسین سلمان، ۲۰۱۱: ۱۸)

۲. کلمة أتابک ترکیة الأصل، وهی مرکّبة من لفظین، (أتا) بمعنی مربی و(بک) بمعنی أمیر، ومعناهما معا مربّی الأمیر أو الأمیر الوالد. کان لقبا یطلق علی الأمراء والقوّاد العسکریین الذین یعهد إلیهم تربیة أبناء السلاطین السلاجقة، وتعلیمهم وتدرّبهم علی شؤون الحکم وفنون الحرب. (أحمد الشامی، ۱۹۹۱: ۳٤)

ولد واحد هو زنكى الذى لقّب فيما بعد بعماد الدين وكان عمره آنذاك عشر سنوات، فاجتمع عليه مماليک الموصل الذين كانوا يلونها من قبل السلاطين السلاجقة إلى أن كبر وصار يحضر معهم الحروب. (تيسير، لاتا: ١١١) ثم ولى الموصل والجزيرة ونصيبين، وما لبث أن وسّع ملكه، وأخذ الجزائر الكثيرة، ومضى ينازل الصليبيين واستولى عليهم و«لم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة.» (سرجانى، ٢٠٠٩: ٥٠٠) لم تكد تمضى سنتان من هذا المجد البطولى حتى استشهد واقتفى ابنه نور الدين خطى أبيه فى جهاده ضد الصليبيين وأبلى بلاء حسنا فى مواجهة العدو الصليبى، واستولى على دمشق، وكان بعيد النظر يفكّر فى تخليص مصر من دولتها المريضة، ولم يلبث أن سنحت له فرصة عظيمة وأصبحت مصر خالصة لصلاحالدين و أسّس بها الدولة الأيوبيّة ومؤسسها الحقيقى إنّما هو نور الدين، ثم توفّى سنة ٥٦٩ق وخلفه ابنه وكان صبيّا وبقى على حلب حتى توفّى سنة ٥٥٧ ق ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه. (للتوسع فى الموضوع انظر: ضيف، ١٩٩٠: ٢٨)

اضطراب الحالة السياسية فى هذه الفترة طبع حياتها الاجتماعية بطابع خاص، فكل مدينة كانت تقريبا مستقلة يحكمها ملک أو أمير أو نائب وأدّى هذا الأمر إلى ظاهرتين: «الترف فى البناء والملبس والهوايات عند الأمراء الذى لا يقابله ترف مماثل عند طبقات الشعب، وتفاوت العادات والتقاليد ما بين مدينة وأخرى تبعا لوقوعها تحت سيطرة العرب والفرنج.» (أنيس جرار، ١٩٦١: ٢٤)

٥. دور الشعر فى مواكبة الحروب الصليبية

لما اجتاح العدوان الصليبى البلاد الإسلامية سنة ٤٩٠ق كانت هذه البلاد تعانى من التفكّک والفوضى والاقتتال الداخلى وكان تفرّق السلطة واختلاف ذوى السلطان من أقوى الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين. واستمر المسلمون على ضعفهم هذا حتى ظهر عماد الدين الزنكى على ساحة الأحداث السياسية وقاد جيش المسلمين ولمّ شملهم واستعاد ما نُهب منهم، وكان للأدب دور فاعل فى المقاومة الشعبية ضد الصليبيين. وهذا الدور لايقلّ عمّا قام به الجنود لتحرير الأراضى الإسلامية وإثارة النخوة القومية والغيرة

الدینیة فی نفوس المجاهدین المسلمین، فقد ظهرت جماعة من الشعراء والأدباء قد حملوا علی عواتقهم عبء الدعوة إلی الجهاد والأخذ بأسباب القوة للقضاء علی العدو المحتل. فمن ثم قد اقتصر معظم أشعارهم علی تصویر بطولات المسلمین خاصة الحکام الذین قاموا فی وجه النصاری ووصفوا المعارک وتحدّثوا عن الصراعات وساحات القتال والقلاع المحتّلة کما وصفوا الأسلحة والمعدّات الحربیة، وامتاز شعرهم بصدق العاطفة والشعور رغبة فی تطلعاتهم فی دحر العدو الغاشم واستعادة البلاد الإسلامیة وتحریرها.

٦. أدب المقاومة

شاع استخدام مصطلح أدب المقاومة خلال العقود الأخیرة، و«هو لا یعنی أن دلالته جدیدة وأن المصطلح نحت من فراغ، بل سبقه مصطلح أدب الحرب، وأدب المعارک، وأدب الجهاد وکلها تتداخل معا للتعبیر عن بعض الدلالات المشترکة، وإن بدت مختلفة فی بعض جوانبها.» (نجم، لاتا: ۳) أما الجهاد فإنه یحمل طابعا دینیا إذ دعا الیه الإسلام فی مواضع مختلفة وألزم المسلمین به وغایته الدینیة هی «هدم بنیان النظم المناقضة لمبادئه وإقامة حکومة مؤسسة علی قواعد الإسلام فی مکانها واستبدالها بها.» (المودودی، لاتا: ۳۵)

کان مصطلح أدب المعرکة وأدب الحرب مقتصرا علی التجربة الحربیّة وحدها وهو فی ذاته ما یدعونا للقول بأنّ الموضوعیة تجعل أدب المقاومة أکثر رسوخا وتعبیرا عن تلک الحالة الخاصة- العامة التی یعیشها الأفراد والجماعات والشعوب فی مواجهة الآخر المعتدی. فهو لا یقتصر علی تجربة الحرب وحدها، ولا للتعبیر عن القهر والاستبداد فقط. إنّه الأدب المعبّر عن العمل من أجل تفجیر الطاقات الإیجابیة الواجبة للمواجهة. إنّه الأدب المعبّر عن وجهة النظر الإنسانیة – الشمولیة ولیست العنصریة الضیّقة؛ کما أنّه الأدب الذی یسعی دائماً لتهیئة الأفراد والشّعوب والرأی العام والفکرة المقاومة. (المصدر نفسه: ۳۵)

من المناسب أن یطلق علی الأدب الذی ظهر فی هذه الفترة أدب المقاومة، إذ إنَّه لم یقتصر علی التجربة الحربیة وحدها، إنما هو الأدب الذی «یرسخ لقواعد الوجود

الإنسانى الحقّ فى مقابل الحياة التى تقوم على الصراع العدوانى بدوافع الجشع والهيمنة.» (المصدر نفسه: ٣٥) متطلعا إلى النصر والحرية موقوفا عند المواقف الإنسانية الرائعة والبطولات الخارقة للمقاتلين والحكام المسلمين للحفاظ على قيم ومبادئ الأمم لذاكرة التاريخ.

٧. عناصر المقاومة فى شعر ابن القيسرانى

٧-١. الدعوة إلى الجهاد

إن شعر الجهاد والمقاومة كشعر رسالى، أحد أهمّ أهدافه ضخّ الحسّ المقاوم فى شرايين الشعب، وتعميق وتجذير الانتماء المقاومى فى ذات الإنسان. (عبدالحليم، ١٩٨٨: ٤٦) ومن الناحيّة الشرعيّة يقسم الجهاد إلى نوعين رئيسين: «جهاد الدفع ويقصد به الجهاد من أجل دفع العدوّ الغازى لبلاد المسلمين، وجهاد الطلب ويقصد به الجهاد من أجل إيصال الدعوة الإسلامية إلى خارج بلاد المسلمين.» (الكبيسى، لاتا: ٢) وإنّما هو واجب إسلامى، إذا احتلّ العدوّ بلاد المسلمين، وبما أنَّ بلاد المسلمين تعرضت لغزو العدوّ الصليبى فى العهد الزنكى، اقتصر أكثر شعر الجهاد فى هذه الفترة على جهاد الدفع، ولما كان عماد الدين أوّل من قام بالجهاد ضدّ الصليبيين واستطاع من تحرير بلدة الرها من أيدى المحتلّين. (سرجانى، ٢٠٠٩: ٤٨٠) سجّل ابن القيسرانى هذا النصر الحاسم وأشاد بعماد الدين إشادة مفعمة بالبهجة والسرور فى ثلاث قصائد منها هذه القصيدة التى افتتحها بقوله:

كأنِّى بهذا العَزم لا فُلَّ حَدُّهُ وَأَقصَاهُ بالأقصى وَقَد قُضِى الأمرُ
وَقَد أَصبحَ البَيتُ المقدَّسُ طاهرا وَليسَ سوى جارى الدِماءِ له طُقرُ

(المقدسى، ١٩٨٨: ١٨٧)

فإمارة الرها كانت أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربى الإسلامى. (وهبة، ١٩٩٧: ٣١) وكان استردادها يبرز استرداد الأمة إلى مرجعيتها السياسية كما يبرز الشجاعة وصمود المقاومة الإسلاميّة بعد نصف قرن من الضعف والضآلة، لذلك يمضى الشاعر بالبهجة والسرور مشيدا ببطولات عماد الدين محرّضا إياه لاستعادة المدن

الساقطة خاصة القدس الشریف وفیها المسجد الأقصی أولی القبلتین وثالث الحرمین الشریفین، مؤکّدا علی النصر باستعمال اللفظة (أصبح) وتحمیس الجند لقتال الفرنج و مواصلة الجهاد.

إن تحریر البیت المقدس یذکی بارقة الأمل فی ضمیر المسلمین وینفخ روح الغیرة فی دمائهم؛ لذلک یخاطب الشاعر نور الدین ویحضّه علی استعادة البیت المقدس بعد استشهاد عماد الدین واحتلال القدس الشریف:

لَم یَبقَ مِنهُم سِوی بِیضٍ بِلا رَمَقِ فانهَضْ إلی المسجدِ الأقصَی بِذِی لَجَبِ
واذَنْ لِموجِکَ فی تَطهیرِ ساحلِهِ کَما التوَی بَعدَ رأسِ الحیَّةِ الذَّنَبُ[1]
یُولیک أَقصَی المنی فالقدسُ مُرتَقبُ فَإنّما أنتَ بَحرٌ لُجّهُ لَجَبُ

(المصدر نفسه: ۱۵٤)

إن الشاعر یرسم هزیمة الصلیبیین ویشبههم بالحیّة وقد هشّم رأسها والتفَّ الذنب حولها لیأخذ من هذه الصورة ما ینفخ قوة الدفاع وشدّة المقاومة فی نفوس المسلمین ویؤکّد فی ذاته إرادة الذّود لتحریر القدس، لذلک یستکثر شاعرنا من الرموز المکانیة التی تستوعب مظاهر القداسة فیها مثل القدس والمسجد الأقصی ثم یحرّض ممدوحه فی خلال مدائحه مرّة أخری علی تحریر القدس وتطهیرها من دنس الفرنج وإعادة الحیاة الکریمة إلی المسلمین.

مع أنّ أکثر شعر الجهاد قد اقتصر فی هذه الفترة علی جهاد الدفع، لکنه یحرّض نور الدین علی جهاد الطلب إذ رأی فی ممدوحه الإرادة الصّلبة والعزیمة المؤثلة:

فَسِرْ واستوعِبِ الدُّنیا فُتُوحاً فلا هَضَبٌ هناک وَلا وِهادُ[2]

(المصدر نفسه: ۱٤۷)

لم یکن الجهاد لیقتصر علی حمایة الوطن الإسلامی وإنّما هو حمایة العقیدة الإسلامیة، فمن ثم یحثّ الشاعر ممدوحه علی توسیع السلطة بعد أن تمکّنت له الانتصارات الحاسمة

۱. البیض: السیوف القاطعة، التوی: انفتل وانثنی، الذنَب: ذیل الحیوان.
۲. الهضب: مفردها الهضبة وهی الجبل المنبسط الممتد علی وجه الأرض، الوهاد: مفردها الوهد وهو الأرض المنخفضة.

ليفتح العالم كلّه و يوسّع رقعة الحكم الإسلامى.

٧-٢. الأمل فى المستقبل

«لقد كان شعر المقاومة متفائلا منذ البدء.» (كنفانى، ١٩٦٨: ٨٥) وما من أدب فى العالم يماثل الأدب المقاوم إلا إذا اتّصل بالأمل والتطلّع إلى مستقبل زاهر لتقوية تجليّات الصمود والتحدّى، ولما كان الشعر وسيلة تعبيريّة فيجب على شعراء المقاومة أن يبعثوا فى قلوب المسلمين بارقة الأمل، فنرى أنَّ الشاعر يوظّف ألفاظا وتعبيرات تشعل فى قلوبهم الرجاء والقوّة لاستمرار البطولات للتوصل إلى أهدافهم السامية، ومثال ذلک قوله:

وَالنصرُ دانٍ وَخَيلُ الله مُقبلةٌ ترجو الشَّهادةَ فى الهَيجا وتَغتَنمُ

(المصدر نفسه:١٤١)

نلاحظ فى هذه الأبيات رؤية الشاعر الإسلاميّة، إذ إنّه يتحدّث عن جيش المسلمين باعتباره جيش الله تعالى، ويصوّر استقبال المسلم للشهادة التى كان لها أكبر الأثر فى ترسيخ فكرة المقاومة، إذ انسابت إلى نفوس المسلمين صلابة العقيدة باستعدادهم للتضحية بالنفس والنفيس واستماتتهم فى سبيل الوطن لتحقيق النصر ومجد الأمة الإسلاميّة.

إن عقيدة المؤمنين بالنصر نابعة من إيمانهم بنصرة الله فمن ثمّ يضخّ الشاعر فى أشعاره معانى العقيدة الإسلاميّة، ويتحدث عن النّصر الذى استمدّه المسلمون من الله تعالى:

وكَيفَ يَغيبُ النَصرُ عَنكُم بِوَقعةٍ مَلائكةُ الله الكِرامُ شُهودُها

(المصدر نفسه: ١٨٩)

يعرف الشاعر أنّ الرؤية الإسلاميّة هى الخطوة الأولى التى تضع الحرب على طريق الانتصار، لذلک يشير إلى قوّة الدين الحنيف التى ظلّت ترفد الأمة الإسلامية وتؤدى بها إلى انتصار خالد ومجد مؤثّل ويلوح إلى تحقق النصر فى جيش المسلمين على طريقة الاستفهام المفيد للتعجب مؤكّدا أن الله تعالى يحميهم ويعمل من وراء مثل هذه الكلمات على رفع معنويّات المجاهدين المسلمين.

٧-٣. تمجيد الأبطال

إن المدح يعدّ الحجر الأساس فى شعر الجهاد وازدهر فى هذه الفترة ازدهارا واسعا

واختصّ أكثر شعر الجهاد بمدح الملوك والخلفاء الذين كان لهم الدّور الريادى للقضاء على العدوّ المحتل وحاول الشاعر فى أشعاره أن يثير نخوة الحكّام المسلمين على الجهاد والتصدّى للصليبيين، فسجّل فى أشعاره أسماء كمال الدين بن الشهروزى وعماد الدين ونور الدين الزنكى لما صدر منهم من مبادرات قيّمة ضد التوسّع الصليبى فعماد الدين الزنكى له المقام الأول فى قيادة الجهاد ضد الصليبيين. (ينظر: بيومى، ١٩٥٢: ٣٣) والذى أعاد الثقة بالنفس إلى المسلمين وأصّل فيهم الشعور البطولى، وقد عبّر الشاعر فى الأبيات التالية عن مشاعره الأبيّة بقوله:

سَلّوا سيوفا كأغمادِ السُّيوفِ بِها صَالوافَما غَمَدوانَصلاًوَلاشَهرُوا
حتَّى إذا ما عماد الدين أرهَقَهُم فى مَأزق مِن سَنَاه يبرقُ البَصَرُ
وَلَّوا تَضيقُ لَهُم ذَرعاً مَسالكُهُم وَالموتُ لا ملجـأ منه ولا وَزَرُ

(المصدر نفسه: ٤٥)

يصوّر الشاعر فى هذه الأبيات شجاعة ممدوحه ويصف ساحة الوغى وعودة الأعداء إلى أعقابهم مقابل جيش المسلمين وسقوطهم فى مأزق الهلاك لأنهم لايجدون ملجأ يؤويهم من بطش القائد الإسلامى المغوار عماد الدين الزنكى.

فضلا عن تجلّى معانى الشجاعة والبطولة فى أشعاره، تمثلت فيها الجوانب الأخرى من الصفات الأخلاقية منها:

ذو الجهادَينِ مِن عدوٍّ ونَفس فهو طولَ الحياةِ فى هيجاءِ
فهو المالكُ الذى ألزَمَ الناسَ سُلُوكَ المحَجَّةِ البيضاءِ
سِرتَ فى النّاسِ سيرةَ الخُلفاءِ قَد أخضعت الملوك للعَدلِ لمّا
قاسماً ما مَلَكتَ فى النَّاسِ حتَّى لقَسمتَ التُقى على الأتقياءِ

(المصدر نفسه: ٤٥)

إن أدب المقاومة يشيد بالقيّم التى يتطلّع إليها المجتمع البشرى فنرى أن الشاعر قرن بطولة ممدوحه بسائر الشيم الخلقيّة مثل جهاد النفس، والعدل والتّقى و... ليرمز بها إلى السجايا الإنسانيّة التى تتجلّى فى أخلاق المقاتلين المسلمين.

٧-٤. تصوير ظلم المعتدين

إن المقاومة جزء من التراث الإنسانى العام الذى يعبّر عن تأدية الدور الإنسانى والحضارى فى مواجهة الظلم، وتحاول أن ترفع مكانة القيم الإنسانيّة للدفاع عن كرامة الإنسان وحدود الوطن. وإن ابن القيسرانى كشاعر مجاهد يحاول فى مسيرته الشعريّة النضاليّة أن يرسم صورة مؤلمة لوحشية الغزاة المحتلّين، ويذكّرهم بأفعالهم الشنيعة التى اقترفوها فى بلاد المسلمين، أما ترسيم ظلم المعتدين فى شعر الشاعر فيختلف عمّا نعرفه فى شعر المقاومة، إذ إنّ الشاعر عندما يتناول ظلم المعتدين، يتحدث فى خلاله عن قدرة المسلمين على تقتيلهم، ليزرع الأمل فى قلوب المسلمين لمواصلة الجهاد والمقاومة:

سَروا لِيَنتَهبوا الأعمارَ فانتُهِبوا قتلاً ويَغتَنموا الأموالَ فاغتُنموا

(المصدر نفسه: ١٤١)

إن ابن القيسرانى صاغ هذه الأبيات عند تحرير حصن بارين ليرسم فيها ما فعله الصليبيون من الفتك بهم واغتنام أموالهم ونهب ثرواتهم وليثير فى قلوبهم دوافع الرفض ويمدّهم بأواصر الثبات.

قد يقابل الشاعر الصور المؤلمة للمسلمين بصور أخرى ويحرّضهم على الشجاعة والمثابرة ليثير فى ضمائرهم الدواعى التى تعطيهم القوّة وتحفزهم على ردّ الخصوم:

طالما استَفحل الخَطبُ البَهيمُ بِهِم حتَّى أَتَى مَلِكٌ آراؤُهُ غُرَرُ

(المصدر نفسه: ٨٩)

إنّ الشاعر فى قصائده الجهادية يتّخذ المواقف التى ظلّت ترفد الأمة لمجابهة القوى الصليبية التى تحاول السيطرة والاستحواذ عليهم فمن ثمّ نرى الشاعر يصف احتلال بلاده بالخطب البهيم، ويأتى بلفظة (طالما) ليدلّ بها على الفترة المديدة التى مضت على احتلال بلاده ثم يشير إلى الملك نور الدين الّذى انتهت به هذه الخطوب ليذكى فى قلوب المسلمين بارقة الأمل لمواصلة الجهاد و المقاومة.

٧-٥. تهديد الأعداء

إنّ الشاعر يجعل التهديد وسيلة يضعف بها إرادة خصمه وينزع عنه أسباب المقاومة

ویدخل إلی نفسه الروع والخوف. یتعاظم تهدید الشاعر فی أثناء حدیثه عن الحروب التی خاضها المسلمون لاستعادة المدن والممالک المحتلّة، وکان حصن بارین من أهم بلاد الفرنج التی فتحها المسلمون «بعد المعرکة الّتی انتهت بفوز جیش المسلمین سنة ٥٣٤ ق بقیادة عماد الدین.» (العطوی، ١٤١٦: ١٦٥) وبعد تحطیم جیش المشرکین وتخضید شوکة الفرنج أصبح الشاعر ینظر إلیهم نظرته إلی غاصب موقوت الأجل ویلجأ إلی التهدید والوعید بقوله:

حَذارِ منَّا و أنَّی یَنفعُ الحَذَرُ وَهی الصَّوارمُ لا تُبقِی ولا تَذَرُ[1]
مَن خَیلُهُ النَّصرُ لا بَل جُندُهُ القَدَرُ وَأینَ ینجُو مُلوکُ الشِّرکِ من مَلکِ

(المصدر نفسه: ٨٨)

إن الشاعر یهدّد المشرکین ویحذّرهم من بأس المسلمین، ویأتی بالاستفهام الذی یفید معنی النفی ویشبه صوارم المسلمین بنار الجحیم التی ﴿لا تُبقی ولا تَذَرُ﴾ (مدّثر:٣٢) والتی لا تبقی أثرا منهم ولا تذر، ثم یسمّی قادة الصلیبیین بملوک الشرک ویلجأ إلی الاستفهام (أین ینجو) قاصدا من خلاله أنّه لا ینجو من بأس هذا الملک أحد من النصاری وذلک لأنه ینصره جیش شجاع ثم یرجع عن قوله ویقول لا بل ینصره قضاء الله ومشیّته.

وقد یطبع تهدیده بطابع النصح ویعبّر من خلاله عن شجاعة ممدوحه ویبعث الخوف فی قلوب الأعداء:

فَقُلْ لِمُلوکِ الخافِقَینِ نَصیحةً کَذا عَن طَریقِ اللّیثِ یزأرُ غلبهُ
وَخَلُّوا عَنِ الآفاقِ فالشّرقُ شُرقُهُ بِحُکمِ الرُّدَینیَّاتِ وَالغَربُ غَربُهُ
وَلا یَعتَصِمْ بِالدّربِ طاغٍ عَلَی القَنا فَإنَّ القَنا فِی ثُغرةِ النَّحرِ دَربُهُ[2]

(المصدر نفسه: ١٨٩)

نلاحظ أن الشاعر ینصح الصلیبیین ویطالبهم بأن یغادروا بلاد المسلمین، لأنّ الشرق والغرب قد وقعا فی حوزة ممدوحه، ثم یهددهم مرة أخری ویخاطبهم بأنّ الدروع الرصینة لا تحمیهم ولا ینجو أحد منهم من قنا المسلمین.

١. الصوارم مفرده الصارم: السیف القاطع. ومعنی الشطر الثانی: إن هذه السیوف هی التی لا ینجو أحد منها.
٢. الخافقان: الشرق والغرب، اللیث: الأسد، یزأر: یصیح من صدره، الردینیّات والقنا: الرماح، ثُغرة النحر: نقرة فی أعلی الصدر.

٧-٦. هجاء الأعداء

لاشـک «أن الاحتلال يولّد المقاومة وأن هذه المقاومة تتناسـب تناسـبا طرديا فی عنفهـا مع عنف الاحتـلال.» (الحمد و البرغوثی، ١٩٩٦: ٥٦) فمـن الطبيعی أن يركز الأدب المقاوم على الجوانب التی تحط من شأن الأعداء وبما أنَّ الحروب الصليبية سلسة من الصراعات العسـكرية ذات الطابع الدينی فيهدف الشـاعر فی أشـعاره إلى عقائد الأعداء الدينيّة وينتقص من شأنهم ويرميهم بالكفر والشرک:

وقلْ لملوکِ الكفرِ تَسلمُ بعدَها ممالكُهـا، إنَّ البِـلادَ بِلادُهُ

(المصدر نفسه: ٩٨)

إن الشـاعر فی هذا البيت يحطّ من شـأن الصليبيين الدينی ثم يندفع فی أثنائه إلى الذّود عـن بلاده ويقف أمام التحديّـات التی يفرضها الصليبيون على المسـلمين وبعد وصفهم بالكفر، يحرص على الحفاظ على بلاد المسلمين ويريد من النصارى أن يغادروا بلاد المسلمين ويردّوا عليهم حقّهم المهضوم؛ فقد يصف قائدهم بالذئب للحط من شأنه:

أخو اللَّيـثِ لولا غدرةٌ نَزعتْ بهِ إلى الذِّئبِ إنَّ الذِّئبَ شيمتُهُ الغَدرُ[١]

أتى رأسُـه رَكضاً وَغُودِرَ شِـلوُهُ وَلَيسَ سِوى عافی النُّسورِ له قَبرُ[٢]

(المصدر نفسه: ١٨٦)

إن الشـاعر يهجو الأعداء وينزع عنهم الشـجاعة والقوّة ليضعف إرادتهم فيشـبه قائـد الأعداء باللّيث، ثم يعدل عنـه ويصفه بالذئب ليظهر فيه صفـات الغدر والخيانة التی اتصف بها الذئـب، ثم يصف حال الصليبيين بعد هزيمتهم، وكثرة القتلى بينهم حيث أصبحت جثثهم طعام النسور الجوارح.

٧-٧. إظهار السرور

إن ابن القيسـرانی يثير فی كل جزء من أجزاء قصائده معانی السرور والبهجة. ومن الطبيعی أن ينثر الشـاعر فی أشـعاره بواعث السـرور، إذ إنّ هذه الانتصارات كسرت شـوكة الصليبيين وأعادت إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم، لذلک يمضی الشاعر بالبهجة و

١. يقول إن قائد النصارى شجاع ذو بأس كالأسد لكنه اتصف بالغدر والخيانة كالذئب.

٢. الشلو: العضو والقطعة من اللحم، العافی: الرائد. يقول قُطع رأسه وجیء به وتركت أشلاؤه لتقتات به النسور.

السرور مخلّدا انتصارات المسلمین بقوله:

الحَقُّ مُبتَهِجٌ والسَـيفُ مُبتسمٌ وَمالُ أعداءِ مُجیر الدینِ مُقتَسمُ

(المصدر نفسه: ۱٤۱)

إثر انتصار تاج الملک بوری بن طغتکین علی الفرنج فی عام ٥۲۳ق والقضاء علیهم سجّل ابن القیسرانی هذا الانتصار معبّرا عن ابتهاج الحق وابتسام السیف علی طریق التشخیص الذی أراد به المبالغة للإفصاح عن مشاعره الفرحة، ثم یشیر إلی انقسام مال الصلیبیین بین جیش مجیر الدین لیرسم قوة المسلمین فی إثارة الحمیّة ومتابعة النضال، أو یتحدث عن بهجة البلاد لیعبّر عن مشاعر الناس وعواطفهم ویوحّد صفوفهم ویلفّهم تحت رآیة نور الدین:

وَمَلَکتَ سِـنجاراً وَ ما مِن بَلدَةٍ إلّا تَمَنَّـی أنَّهـا سِـنجارُ

وَثَنی الفُراتُ إلـی یدیکَ عِنانَهُ وَالبَحرُ مَـا اتّصَلَت بِـه الأنهارُ

وَمَلَکتَ رحَبةَ مالِـکٍ فَتَبَرَّجَتْ مِنهـا لِعَینـکَ کاعِـبٌ مِعطـارُ[1]

(المصدر نفسه: ۱۷٥)

ینظر ابن القیسـرانی إلی الوحدة نظرة تعظیم وتبجیل ویحثّ الحکام علیها. ولا غرو أن یؤکّد الشـاعر علی الوحدة فقد أثبتت الدراسـات أن أهم عامل فی هزیمة المسلمین فی الحروب الصلیبیة إنما «یرجع إلی عدم وجود قوة موحّدة إسـلامیة تستطیع أن تقف فی طریقهم.» (بیومی، ۱۹٥۲: ۳۱) فمن ثمّ لما اسـتولی نور الدین علی سنجار والرحبة والأعمال الفراتیة، صوّر الشاعر ترحیب الدیار التی استولی علیها نور الدین. فسنجار مسرورة بهذا، حتی تمنّت کلّ مدینة أنّها سنجار والفرات.. . لیدعو المسلمین إلی الوحدة الّتی تعد الطریقة الوحیدة للنصر.

۷-۸. وصف المعارک

رسم ابن القیسرانی مشـاهد المعارک مشیدا ببطولات المسلمین وقصد بوصف هذه المعارک أن یصوّر قدرة المسـلمین علی القضاء علی العدوّ الصلیبی. واعتمد فی وصفه علی صور تبیّن قدرة المسـلمین علی المثابرة والمقاومة وتبرز هذه المعانی بروزا واضحا

۱. کاعب: فتاة ناهد الثدی، شبه الشاعر بلدة سنجار بفتاة تزینت لنور الدین ورحبت بقدومه.

فى أشعاره الجهادية:

وَالخَيلُ مِن تَحتِ قَتلاها تَخِرُّ لَها قوائِم خانَهُنَّ الرَكضُ والخَبَبُ
وَالنَقعُ فَوقَ صِقال البَيضِ مَنعَقدُ كَما استَقَلَّ دُخانٌ تَحتَه لَقبُ
لَا البيضُ ذُو ذمةٍ فيها وَلَا اليَلَبُ وَالسَّيفُ هامٍ عَلى هَامٍ بَمعركة
وَالنَبلُ كالوَبل هَطالٌ وَلَيسَ لَه سوى القِسى وأَيدٍ فَوقَها سحبُ[١]

(المصدر نفسه: ١٥٣)

إنّ الشاعر يجسّد النقع المثار تحت قوائم الخيل وقتل الأعداء فى ساحة الوغى ويصوّر المعدّات الحربيّة كالخيول والسيوف والنبال ليكشف بها عن قوّة المسلمين وضعف أعدائهم ويذكى فى قلوبهم بارقة الأمل لمواصلة المقاومة:

كانَت سُيُوفُهم أوحى حُتُوفَهم يا رُبّ حائنةٍ مَنجاتُها العَطَبُ[٢]

(المصدر نفسه: ١٥٣)

وفى موضع آخر يحطّ الشاعر من شأن الأعداء ويشير إلى أنهم قد تركوا أولادهم وأهلهم ولم يكترثوا بصلبانهم التى تعدّ رمزا لدينهم ومن هذا المنطلق يرسم قوة المسلمين على ردّ جيش الكفار والسيطرة عليهم.

فَغَادَروا أكثرَ القُربَانِ وانجَفَلُوا وَخَلَّفُوا أكبَرَ الصُّلبَانِ وَانهَزَمُوا
مُستسلِمينَ لِأيدى المسلِمينَ وَقَد أغرى الفَنا بِتَمادى خَطفِهم نَهَمُ[٣]

(المصدر نفسه: ١٤٢-١٤١)

٧-٩. الفخر بالقوة

إنّ معانى الفخر والاعتزاز بالقوّة تلتمع فى أبيات قصائده خاصة فى وصفه للمعارك وتتوارد فيه معانى الشجاعة والاعتزاز ويستذكر أيّامهم المجيدة الّتى سجّل المسلمون

١. تخر: تسقط، الخبب: العدو والركض، النقع: الغبار، هام الأولى فى البيت الثالث: من همى يهمى بمعنى سقط و الثانية بمعنى الرأس، اليلب: جلود تلبس على الرؤوس، النبل: السهم، الوبل: المطر الغزير، القسى: جمع القوس.
٢. أوحى حتوفهم: أخبر هلاكهم، الحائنة: النازلة المهلكة ذات الحين. العطب: الهلاك.
٣. انجفل: انزعج و فزع، خطفه: جذبه وأخذه بسرعة، النهَم: الرغبة الشديدة. يقول: والموت كان حريصا عليهم.

فيها الانتصارات الدامغة. ويكثر الشاعر من افتتاح قصائده الجهادية بمطالع تمجّد القوة وتتغنى بها:

فى عَسكَرٍ يُخفِى كَواكِبَ لَيلِهِ نَقــعٌ فَيُطلِعُهَا القَنَا الخَطَّارُ[١]

(المصدر نفسه: ١٧٤)

يرسم الشاعر جيش المسلمين الجرّار وهم يتجهون إلى الأعداء، وتختفى نجوم السماء لكثافة نقع خوافر خيولهم. وقد يلجأ إلى التشبيه ويتحدّث عن كثرة جيش المشركين وقد أحاطوا بالمسلمين من جميع الجهات ليصوّر قدرة المسلمين على هزيمة الكفّار:

حَتى إذا ما أحاطَ المشركونَ بنا كاللَّيلِ يَلتَهِــمُ الدُّنيا لَه ظُلَمُ

وَأقبَلوا لا مِنَ الإقبَالِ فِى عَدَدٍ يَؤودُ حاسِبَهُ الإعياءُ وَالسَّأَمُ[٢]

(المصدر نفسه: ١٤١)

ويتحدّث الشــاعر عن الحرب بين عماد الدين وأعدائه وعن كثرة عددهم وعُددهم ويذكر تصرّفات المســلمين فى الظروف المختلفة، وقوّتهم وشجاعتهم فى الاستيلاء على الأعداء والانتقاض عليهم من كل صوب وحدب:

إن قَاتَلُــوا قُتِلُوا، أو حَارَبُوا حُرِبُوا أَوطَارَدُوا طُرِدُوا، أوحاصَرُوا حُصِرُوا

(المصدر نفسه: ٨٨)

ثم يعود ويذكر قادة الأعداء الذين تنوشهم الرماح والسيوف:

وللإبرنزِ فَوقَ الرُّمحِ رَأسٌ تَوَسَّدَ وَالسِّــنانُ لَهُ وِسادُ[٣]

تَرَجَّــلَ لِلسَّــلامِ فَفَرَّسُــوهُ وَلَيسَ سِوَى القَنَاة لهُ جَوادُ[٤]

(المصدر نفسه: ١٤٦)

إنّ الشاعر يصف هزيمة الأعداء بلغة ساخرة ويقول إن رأس الإبرنز كان بحاجة إلى الوساد فتوسّد الرمح ثم يقدم صورة ساخرة أخرى عن الإبرنز الذى نزل عن ظهر فرسه

١. القنــا: الرماح، الخطار: الطعّان. يقول: إنهم يقاتلــون أعدائهم النصارى بجيش عرمرم جرار تختفى النجوم فى غباره المتراكم ويكشف عنها بريق رماحه الطعانة.

٢. يؤود: يُجهِدُه ويُثقلُه، الإعياء: الإتعاب والإعجاز.

٣.نوسد: اتكأ ووضع رأسه على وسادة.

٤. ترجل: نزل عن دابته، فرّسوه: ركّبوه على فرس.

للاستسلام ولكنهم ركّبوه على الأسنة.

٧-١٠. التهكم بالأعداء

السخرية من الأعداء ووصف هزيمتهم وفرارهم من ساحة الوغى مرحلة أخرى لترسيخ فكرة المقاومة فى شعر الشاعر وإنه يسخر من الأعداء فى كل حرف وكلمة وبخاصة عندما يرسم هزيمتهم أمام جيوش المسلمين:

إلى أينَ يا أسرَى المهالِكِ بَعدَ ما ضَاقَ الفَضاءُ عَلَى نَجَاةِ الهَارِبِ[١]

(المصدر نفسه: ٩٩)

نرى أن الشاعر يتحدّث عن هزيمة الصليبيين بلغة ساخرة ويصوّر جبنهم وفرارهم فيوظّف اللفظ فى خدمة المعنى ويأتى بلفظ (إلى أين) ليرمز به إلى الخناق الذى فرضه المسلمون على النّصارى ويأتى بلفظ (أسرى المهالك) ليرسم من خلاله انهزام جيش الأعداء وسقوطهم قتلى جميعا.

وفى موضع آخر يسخر الشاعر من الأمير الصليبى برنس الذى قتل فى معركة إنَّب. (مقدسى، ١٩٩٨م: ١٥٢) حيث قطع رأسه وحمل على السنان:

عَجِبتُ للصَّعدة السَّمراءِ مُثمرةً بِرأسِهِ، إنَّ إثمارَ القَنَا عَجَبُ[٢]

(المصدر نفسه: ١٥٤)

جعل الشاعر رأس عدوّه ثمارا ناضجة، ليعرض صورة عن العدو الصليبى و مصيره المحتوم فى القتال مع ممدوحه نورالدين.

٧-١١. استدعاء التراث

هناك دوافع مختلفة تحمل الشاعر على استدعاء التراث، منها الدوافع النّفسية، والقوميّة، والثقافيّة، و...، وربّما الدافع الأساس فى توظيف التراث فى شعر الشاعر هو الدافع القومى حيث بذلك «يهدف الشاعر إلى استثارة طاقات الأمة الموحّدة فى وجه العدو القومى، الخارجى.» (أشقر، ٢٠٠٥م: ٣٦) فالشاعر يوظّف التراث إمّا فى

١. أسرى المهالك: من قد وقع فى أشراك الهلاكة وأسرها.
٢. الصعدة السمراء: القناة المستوية.

وصفه للمعارک أو مدح الحکّام أو هجو الأعداء فیستعید الأمجاد والمغازی الّتی سجّل المسلمون فیها روائع الانتصار مقترنة بالإجلال والإعجاب، مصوّراً هزیمة الأعداء:

لله آیــة وَقفَــةٍ بدرِیـــة نُصِرت صَحابتُها بِأیمِن صاحبِ
ظَفَرٌ کمالَ الدین کُنتَ لِقاحَهُ کَم ناهضٍ بالحرب غَیرُ مُحاربِ
وَأمدَّکُم جَیشُ الملائکِ نُصرةً کتائــبٍ مَحثوثــةٍ بِکتائــبِ[1]

(المصدر نفسه: ۹۸-۹۹)

یشید الشاعر بالأیّام الإسلامیّة الماضیة ویقرن فتح الرها بمعرکة البدر ویذکر أنّ الله تعالی نصرهم فی یوم الرها کما نصر المسلمین فی یوم البدر، و یرمی من خلاله إلی ربط الحاضر بالماضی المجید وإنعاش الذاکرة الإسلامیّة.

وقد یوظّف التراث فی رسم صورة العدو الصلیبی ویستدعی قصة هلاک ثمود لیصوّر من خلالها هزیمة الفرنجة وما حلّ بهم من دمار وهلاک:

وعارَمَ یَومَاً بالعُرَیمَةِ فاغتَدَت کَوادِی ثَمُودٍ إذ رَغَا فیهِ سَقبُهُ[2]

(المصدر نفسه: ۱۸۸)

فهنــا تظهر رؤیة الشــاعر الدینیّة حیث یقرن العذاب الذی لحــق بالفرنجة علی ید نورالدیــن فی معرکة عارم، بالعذاب الذی أنزل الله تعالی علی قوم ثمود لمّا ظلموا نبیّهم صالح(ع) مؤکداً أنّ الحقّ یحلفه النصر فی نهایة الأمر. أو یســتوحی قصة قوم عاد والنبیّ هود(ع) للإشارة إلی هلاک القوم الظالحین:

وَإنَّمــا الإفرنجُ مِــن بَغیِهَا عــادٌ وَقَــد عادَ لَهــا هُودُ

(المصدر نفسه: ۱٤٦)

وقد یوظّف الرموز الإسلامیّة و القرآنیّة فی ثنایا مدائحه ویشبه ممدوحه بالنبیّ داود والنبیّ سلیمان(ع):

نالَ المعالی حاکِماً مالِکاً فهــو سُــلیمانُ وداودُ

(المصدر نفسه: ۱٤٥)

---

۱. محثوثة: مملوءة ویقصد من کتائب محثوثة بکتائب جیشا ضخما.
۲. عارم: خاصم. رغا البعیرُ: صوَّت وضجَّ. سقب: وَلد الناقة.

استوحى الشاعر معظم شخصيات قصائده من التراث الإسلامى والعقيدة الدينية لتحميس جند المسلمين وحثّهم على الجهاد الدينى إذ إن «العقيدة الدينيّة تشدّنا إلى الله خالق السماء والأرض، تشدنا دوما إلى عروبتنا وأرضنا المقدسة، من أجل الدّفاع عنها أمام الأخطار والغزوات الخارجيّة.» (أشقر، ٢٠٠٥م: ٣٧) فهنا عقيدة الشاعر الدينيّة تدعو إلى وحدة الأمة الإسلاميّة و توحيد صفوفهم للدفاع عن الوطن والعقائد الدينيّة أمام العدوّ المحتل.

٨. النتيجة

– يعدّ المدح أبرز الأغراض الشعرية الذى صوّر الشاعر من خلاله مقاومة المسلمين وصمودهم تجاه العدوّ الصليبى الغاشم بقيادة الزنكيين.

– الدعوة إلى الجهاد، والأمل فى المستقبل، ومدح الحكام، وهجو الأعداء، ووصف المعارك من أهمّ مظاهر المقاومة الّتى تجلت فى شعر الشاعر.

– يعد الدين والوطن الباعثين الأساسين فى رفع المعنويّات وإثارة النخوة الدينيّة والغيرة القوميّة لدى المسلمين. فمن ثمّ استدعى الشاعر الكثير من الرموز التراثية ليحمّس جنود المسلمين ويحرّضهم على الدفاع عن حياض الدولة الإسلامية وحدودها.

– اعتمد الشاعر فى تصوير بطولات ممدوحيه على الأوصاف الشائعة فى الشعر الحماسى من الإظهار بالقوة والفخر والتهكم بهزيمة الأعداء، ليثير النخوة الإسلاميّة والغيرة القومية فى قلوبهم لمواصلة المقاومة والجهاد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أشقر، أحمد. (٢٠٠٥م). التوراتيات فى شعر محمود درويش من المقاومة إلى التسوية. ط١. دمشق: قدمس للتوزيع و النشر.

أنيس جرار، فاروق. (١٩٦١م). محمدبن نصر القيسرانى حياته و شعره. رسالة الدكتوراه. بيروت: الجامعة الأميركية.

بيومى، على. (١٩٥٢م). قيام الدولة الأيوبية فى مصر. ط١. القاهرة: دار الفكر الحديث للطبع والنشر.

تيسير بن موسى. (لاتا). نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور

الدین. القاهرة: مکتبة المصطفی.
الحمد، الجواد وإیاد البرغوثی. (۱۹۹۹م). دراسة فی الفکر السیاسی لحرکة المقاومة الإسلامیة حماس. عمان: مرکز دراسات الشرق الأوسط.
سرجانی، راغب. (۲۰۰۹م).قصة الحروب الصلیبیة من البدایة إلی عهد عماد الدین زنکی. ط۲. القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزیع والترجمة.
الشامی، أحمد. (۱۹۹۱م). صلاحالدین والصلیبیون. ط۱، القاهرة: مکتبة النهضة العربیة.
ضیف، شوقی. (۱۹۹۰م). تاریخ الأدب العربی: عصر الدول والإمارات الشام. ط۲. القاهرة: دار المعارف.
عبدالحلیم، محمود. (۱۹۸۸م). الجهاد فی الإسلام. ط۲. القاهرة: دار المعارف.
العطوی، مسعودبن عید. (۱٤۱٦ق). «الاتجاه المحافظ فی الشعر إبّان الحروب الصلیبیة». مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامیة، العدد الخامس عشر.
الکبیسی، محمد عیاش. (لاتا). من فقه المقاومة والجهاد.www.e-prism.org. تاریخ الأخذ: ۲۰۱٤/۳/۲٤
کنفانی، غسان. (۱۹٦۸م). الأدب الفلسطینی المقاوم تحت الاحتلال. ط۱. بیروت: موسسة الدراسات الفلسطینیة.
المقدسی، أبوشامة. (۱۹۹۸م). الروضتین فی أخبار الدولتین النوریة والصلاحیة. الجزءالأول- القسم الأول. القاهرة: دار الکتب المصریة.
المودودی، أبوالأعلی. (لاتا). الجهاد فی سبیل الله. بیروت: دار الفکر الحدیث.
موسی باشا، عمر. (۱۹۸۹م). الأدب فی بلاد الشام عصور الزنکیین والأیوبیین والممالیک، دمشق: دار الفکر.
نجم، سید. (۲۰۱٤). ملامح أدب المقاومة فی روایات نجیب محفوظ.www.aljabriabed.com
وهبة، مصطفی. (۱۹۹۷م). موجز تاریخ الحروب الصلیبیة. ط۱. المنصورة: مکتبة الإیمان.
الهرفی، محمد علی. (۱۹۷۹م). شعر الجهاد فی الحروب الصلیبیة فی بلاد الشام. المملکة العربیة السعودیة: دار المعالم الثقافیة.
یاسین سلمان، حسام تحسین. (۲۰۱۱م).الصورة الفنیة فی شعر ابن القیسرانی عناصر التشکیل والإبداع. رسالة الماجستیر فی جامعة النجاح الوطنیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی